حول مسرحية « روبلس » :

الحقيقة ماتت !

بقلم رينه حبشي

ليس اصعب من الحديث عن الحقيقة ، وليس اتفه منه كذلك . إن سؤال « ما هي الحقيقة » في اوسع أشكاله ، هو سؤال مجرّد ، ولا يحتمل اي جواب مرض . ولكي يتخذ معنىً ، ينبغي له ان يتناول حالةً معينة ، ان يتجسد في موقف محسوس ، ان يصبح قلق شخص من الاشخاص . فاذ ذاك تختلج الحقيقة ، او أن قضية الحقيقة على الأصح ، تقابلنا وجهاً لوجه ، حتى ولو كانت الحقيقة في هذه الحالة المعينة بسيطة مشرقة . ذلك انها تتناول آنذاك قيمة انسانية . وليس في ما هو انساني ما هو مجرّد او بسيط . وهذا هو عذابنا ، وهو امتيازنا ايضاً .

إن مسرحية عمانوئيل روبلس « الحقيقة ماتت » * تقدم لنا على التدقيق حقيقةً مجسدة ، حقيقةً متوضعة . ولذلك فسرعان ما تتلبس الحقيقة هنا طابعاً درامائياً .

وبالرغم من ان مسرحية روبلس ليست خطيرة ، وليست عملًا ادبياً كاملًا ، فهي تستحق اكثر من سواها ان تثير الانتباه . وهي تذكرنا احياناً بآثار مونترلان ، على تجاوزها عدداً كبيراً من هذه الآثار من حيث التأليف . ولكننا نجد فيها تجريد الاسلوب وعُرْي بعض الاجوبة ، ثم شاعرية منسابة كأنها ينبوع حنان في عالم معدنيّ يعيش فيه البشر بحالة حرب . واحسب ان مسرحية روبلس كانت تحرز نجاحاً اكبر لو انها لم تصدر مباشرة بعد مسرحية سارتر « الايدي القذرة » . والواقع ان هذه الأخيرة تتناول هي ايضاً ، فيما تتناوله من موضوعات ، موضوع البطل السياسي الذي لا حاجة به بعد لأنه أصبح مزعجاً ، فلا بدّ اذن من تلطيخه لصنع بطل آخر اوفر استجابة لحاجات الساعة . ويبدو ان الاحداث ، وقد تغيرت ، تقضي على الرجال بان يخونوا مبادئهم . فليست حقيقة عهد الحرب هي نفسها حقيقة عهد السلم . فيبقى إذن ان تهدم التماثيل السلمية المعبودة ، لتستبدل بها تماثيل اخرى مصفحة بالحديد ، مهيأة للمناسبة .

على ان ما هو موضوع ثانوي لدى سارتر يصبح في مسرحية روبلس موضوعاً رئيسياً . إن جيوش نابوليون تتقدّم في اسبانيا ، وإن الاسبانيين يدافعون عن انفسهم بكل ما في وسعهم ، ترفدهم الشجاعة اكثر مما تعضدهم الاسلحة والمؤن ، وتواكبهم البطولة المتفانية اكثر مما تغريهم حظوظ النصر . وإن المعونة الانكليزية ، اذا هم طلبوها ، تضمن لهم نتيجة المعركة : وقد كان الكولونيل جيوارز ينشد هذه المعونة ، بدافع من حسّه الواقعي ، ولكن رئيسه دون انريك يرفض ذلك ، بحظّ اقل من الواقعية . فهو لا يحتاج الى حليف سيطلب بعد حين ثمن النصر ، ولهذا لا يعتمد إصراره الا على مقاومة رجاله اليائسة .

وفي البدء ، نرى جيوارز نفسه وقد عهد اليه دون انريك في ان يحمي قلعة سان نيقولا التي تحصن المدينة . وبينما كان صامداً فيها صمود الابطال ، كان انريك داخل المدينة يقمع كل محاولة لاشاعة الفوضى : « إن كل من يفرّ من الجيش يُعدم على الفور ، واذا لم يقبض عليه ، يشنق اقرب عضو من اسرته اليه . » ونحن نراه يجيب ضابطاً يسأله عن المكان الذي يلجأ اليه ، اذا اضطر الى التراجع ، فيقول « الى المقبرة » . إنه في الواقع ذلك الرجل ذو القبضة القاسية التي لا تعرف رحمة ، والذي يقوده مثل سياسي اعلى لا يهتم بأية صعوبة او تعقيد . فهو لا

عمانوئيل روبلس

* نقلها الى العربية الدكتور سهيل ادريس ، وصدرت مؤخراً في سلسلة « روائع المسرح العالمي » ، من منشورات دار العلم للملايين ، بيروت .

يملك الوقت لذلك .

ولكن ها هو ذا جيوارز نفسه يضطر الى التخلي عن قلعة سان نيقولا مع جنوده الألفين . ولقد كان سكان المدينة يلومونه طبعاً لأنه اضطر الى ان يحول مساكنهم الى ساحة حرب. غير ان دون انريك لم يكن يجهل ان القلعة لا تستطيع الصمود ، بل هو قد نصح بالتخلي عنها ، في حالة الضرورة .

ولكن ما معنى هذه النصيحة ، وما معنى تلك المجازفة ؟ اكان ذلك لافساد سمعة جيوارز، ولتعريضه لمرسوم الموت؟ ان هذا غير ممتنع . لقد كان ثمة امران يباعدان بين هذين الرجلين : إن انريك فوضوي مستبدّ ، اما جيوارز فهو من انصار الحريات الثورية . انريك يرفض المساعدة الاجنبية ، حتى ولو ادّى ذلك الى الهزيمة ، وجيوارز ينشد النصر ولو بمعونة الانكليز . ايكون لانريك إذن دافع شخصي يحمله على تمنّي الموت لجيوارز ؟

لا ، إنه ليس رجل الدوافع الشخصية ، ولكنه رجل الغاية السياسية التي ينبغي ان تتحقق دون ما هوادة . إنها فكرة لا شخصية متنبهة الى جريانها ليس غير . وإن الدفاع عن المدينة يقضي بان كل رجل يتراجع ، حتى ولو كان له عذره ، هو خائن ويجب ان يخسر صفته كبطل .

ومن أجل هذا لا يعمل دون انريك شيئاً لخنق الشائعات الضارّة التي تحوم حول جيوارز من أنه باع نفسه للفرنسيين فسلمهم القلعة ، وانه كان مستعجلاً لقاء زوجته في المدينة . ومن اجل هذا يدعو انريك ، وهو يعرف ظلم هذه الشائعات وافتراءها ، يدعو جيوارز الى الانتحار ، حتى لا يضطر الى الحكم عليه بنفسه . هذا ما كانت تقتضيه الحرب : ان بطل الأمس ينبغي ان يعتبر اليوم جباناً . إن هناك حاجة الى خائن يُنصب عبرة ودرساً . اقرأ هذا الحوار الغريب بين الرجلين :

«دون انريك – سنعيش ساعات حاسمة .واني سأطلب من الجميع تضحيات كبيرة . سنقاوم هنا حتى آخر رجل ، وسأصدر مرسوماً يقضي باعدام كل من يفاجأ وهو يتحدث عن الاستسلام . ولكن يجب ان يؤمن الناس بحزمي المطلق في إقامة العدل . والحق ان ايمان مقاتلينا قد تزعزع ، وربما أنفجرت الوان أخرى من العصيان! إن المدينة لا بدّ ضائعة اذالم امسكها بقسوة في قبضتي !

جيوارز (مستهزئاً) – ستعرض لي الآن بالطبع فائدة الخونة في مثل هذه الظروف ! فان الخائن لا يقدّم فحسب شرحاً ممتازاً لسبب الهزيمة ، كما كنت تقول ، بل يستنزل عليه ايضاً غضب المهزومين وينسيهم المسؤولين الحقيقيين ! هذا بصرف النظر عن مشهد اعدام الخائن الذي يحمل الجبناء وأصحاب الحياء على التفكير ! وعلى هذا ، فان الخائن الصالح ، في بعض الظروف ، خير من نصف دزينة من الفرق ، الى حد انه من الضروري احياناً ، اذا لم نجد الخائن تحت يدنا ، ان نخلقه ! وفي المأساة الراهنة التي نعيش فيها ، استطيع ان امثل هذا الدور ! اني الخائن المنشود ! الخائن الضروري ! الخائن النموذج ! اليس هذا ما تقصده يا عزيزي انريك ؟

دون انريك – إن المعركة الحاسمة ستبدأ يا جيوارز : وانا بحاجة الى ثقة الجميع ، واكرر لك ان مما لا يُسمح به ان يستطيع بعضهم القول اني اطلق الرصاص على الجنود البسطاء ، ولكني اوفر ضباطي عن رضى . إن ما انتظره منك هو اكثر من مجرد تضحية بحياتك !

جيوارز – إن هذا شيء رائع !

دون انريك – لو انني اصدرت اليك الأمر بان تُقتل في القلعة ، بدلاً من ان تنسحب ، لكنت اطعتني .

جيوارز – هيلا ! ما أشد ما تبالغ ! إن الموت في اثناء القتال امر اعددت له نفسي منذ وقت طويل ! ولكن ما تطلبه مني ، انما هو ان اقبل الموت ، بالرغم من براءتي ، رازحاً تحت تهمة مشينة !

دون انريك – كانوا يعدون بطل العصور القديمة الذي يمدو الى التضحية بنفسه ، بعرفان الوطن وتخليده بالأناشيد الوطنية [....] اما البطل الحديث ، فيتفق ان يهبوه ميتة كهذه عظيمة الفائدة لقضية كبرى ، ولكنها ميتة مدفوع ثمنها بالكراهية والهوان ! إن بطولة اليوم لا تكشف دائماً ، كبطولة العصور القديمة ، وجهاً صافياً ومشعاً ! فان هذا الوجه نفسه قد يختفي خلف قناع من الحقارة والذل !

جيوارز – ليس للبطل قناع. إن على ذكراه وحدها ان تلهب النفوس وتشرف الضمائر وتوحي مزيداً من القيمة ومن الحب ايضاً! اما انت فتعرض عليّ العكس ! [...] ولئن قبلت ميتة كهذه يا دون انريك، فاني سأظهر جبناً واحتقاراً للآخرين ولنفسي استحق عليها ان يشمل العار اسمي وذكراي!

دون انريك – إن كنت تحب اسبانيا . وإن كنت لا تفكر الا بأنقاذها ، فانك لن تتردد في وضعها فوق هذه الاعتبارات. إن النار العظيمة التي اشعلتها مصائبها ينبغي ان تضيء روحك ، ان تحرقها ، ان تلتهمها حتى تحيل همومك الصغيرة الى رماد !

جيوارز – لقد أصغيت اليك بتنبه وصبر طويل.واحسب انه لا جدوى من إطالة هذا النقاش . اسمع جيداً يا انريك الفارو دوهارو ، هذا هو جوابي : كلا !»

على ان جيوارز بدأ يتزعزع ، بالرغم من عزمه على الدفاع عن نفسه ، فلقد سمع كيف يتكلم الناس عنه . وإن من يؤمن بنزاهته هم وحدهم الرجال الذين حاربوا معه ، اما الشعب فيتهمه ، وقد انتشرت بذور الحذر هنا وهناك كأنها الوباء . ويبدو ان الظروف قد تغيرت تغيراً كبيراً حتى انها أفسدت حقيقة بطولته ، فكأنّ براءته في غير محلها، او كأنها مربكة. وليس ثمة من يؤمن بها بعد .

جيوارز – ... علمت بدهشة ان مهنتي كخائن قد بدأت منذ زمن طويل ، واني سبق ان كنت في خدمة الانكليز ... (صمت ، ينشر دون انريك خلاله على الطاولة خارطة ووثائق) اني افكر بمعركة «بابا سيتو».

كان المدفع الرشاش قد هدم جدار مستشفى المجانين ، فانتشر هؤلاء في الشوارع وسط الرصاص ! وكانوا يلوحون بأيديهم ويتغنجون ويصيحون او يضحكون وفقاً لجنونهم ، وانا كنت احاول بلادة ان اقنعهم بأنهم في خطر ، ولكنهم لم يكونوا بالطبع يعيرونني اقل انتباه ، وكنت اعظمهم من غير جدوى !.. وانني اليوم لاستشعر إحساس الذعر نفسه . احس بانني محوط ببلهاء تستولي عليهم فكرة ثابتة بجرمي ، وبأن أشد احتجاجاتي لا تستطيع ان تؤثر فيهم !

دون انريك – انني افهم شدة ضيقك ، ولكني لا استطيع مساعدتك . [...] لا بدّ أن تهلك يا جيوارز ، كما لا بد ان يهلك اولئك الذين يريدون ان يعارضوا هذه القوة الهائلة التي ستأخذ على عاتقها غداً مصير اسبانيا .

جيوارز – إن الموت بذاته امر عسير ، فكيف اذا كان عقب تهمة فظيعة كهذه ، مع الايمان بأن ليس بالامكان إطلاقاً محو هذه التهمة !

دون انريك – يحق لاسبانيا ان تطلب منك كل شيء ! وهي بحاجة الى ان تتهم نفسك بأنك قد خنت . انني افهم ان تتراجع ، ولكن لا تنس انك مدين بشرفك لأسبانيا .

ولكن اذا كان جيوارز يريد انقاذ نفسه ، وانقاذ حقيقة براءته ، فهو لا يجهل ان عليه ان يقاتل رجاله الاسبانيين ، وبذلك يثير حرباً اهلية ، بينما يحاصر العدو المدينة . وتجاه ذلك ، يتساءل جيوارز اذا كان ذلك يبرر ان يظل حريصاً على حقيقته التي يشيح عنها الجميع بوجوههم والتي تتهدد مصلحة اسبانيا بالذات . اليس من الأفضل ، في هذه الحالة ، ان يترك للناس الاعتقاد بانه كان متواطئاً مع العدو لتسليم القلعة ، ويترك لهم الاعتراف بخيانته؟ اننا نراه يقابل الضابط الذي يتلقى الاوامر للدفاع عنه ، بصمت يشيع ريبة قاتلة :

ميراندا – إن الفرنسيين يهاجمون ! لقد دقت الساعة ! الساعة التي كنا نتمناها !.. ولقد هرعت اليك مفتوح القلب ، وفي يدي العاصفة، وها هما لم يبق فيها الا قبضة من الرماد الميت ! اسمع يا جيوارز ! انا لست إلا فلاحاً ، اوضع الفلاحين على هذه الارض ، ولكني اعرف كيف ينبغي ان يحترم انسان ما ! اننا معاً منذ عام ! منذ عام نتقاسم الحلو والمر ، فانا لم اتركك قط . وقد كنت الى جانبك في سان نيقولا ! وانا الآن استدعي ذكرياتي كلها . انني اراك إذاً بوجه مشرق صريح ! اما اليوم ، فـ ان نظرتك للمرة الاولى تفر . (صمت ، يلتفت جيوارز) جيوارز ! الا يستطيع رجلان تقاسما مثل هذه الآلام ومثل هذه المصائب الكثيرة ان يتغلبا فيمثل هذه اللحظة ، على كبريائهما فيتكاشفا قلباً لقلب ؟ (صمت) الا تقول شيئاً ؟ ما الذي ينبغي لي ان اظنه يا جيوارز ؟ اسمعني مرة اخرى : انني اخشى واتحرق شوقاً في وقت واحد ، الى ان اسمعك تتكلم ! إن الشك الذي غمرني يتركني مصموقاً،او ان كلمة منك، او حركة ، تستطيعان ان تمحواه ! (صمت ، جيوارز ينظر امامه باحداد ، ويداه خلف ظهره . يقبض عليه ميراندا من عنقه ويصيح به في لهجة يأس وكراهية) حذار يا جيوارز حذار! إن سكوتك اعتراف ! وهذا الاعتراف ، اريد ان اسمعه – انني لا استطيع ان اصدق انك ضحيت من أجل لا شيء بمئات من الرفاق في القلعة ، وانك تركت متطوعي « فونتالبا » يهلكون،وانك هدمت صرح نصرنا الذي كسبناه بتلك الدماء الغزيرة ! لكي اصدق هذا، لكي اصدق امراً يتجاوز الفهم البشري (يرفع صوته) لكي اصدقه،ينبغي ان اسمعه من شفتيك ، ينبغي ان تقوله انت ، ان تقول انت الكولونيل الكونت غيلرمو جيوارز، قائد الفرقة الخامسة عشرة لحاملي بنادق«جاكا» انك سلمت القلعة عن رضى ! قل ذلك ، واذ ذاك اصدقك ! واذ ذاك ، يا جيوارز ، بدلاً من ان اسير على رأس رفاقنا ونأتي لانقاذك، فسأطلب ان يكون لي الشرف بان اقود الرجال الذين سيعدمونك رمياً بالرصاص في ظهرك ، وانت راكع على ركبتيك ، كما يُعدم الخونة ! (على الصراخ، تبرز مانيولا ودون دياغو من الباب الواطىء ، في حين يبرز من الباب الداخلي ، في الوقت نفسه ، دون انريك ولورانزو والجنود.تسمع عبارات: « ماذا هناك ؟ ماذا جرى ؟ » يكون جيوارز آنذاك في أعلى السلم. يظل لحظة جامداً امام النافذة ، ثم يلتفت نحو الذين ينتظرون تحت ، ووجوههم مرتفعة اليه . ينظر اليهم بعينين شاردتين ، ويتقدم ببطء نحو الدرجات ويقول بصوت قاتم :)

جيوارز – انا الكولونيل الكونت غيلرمو جيوارز... اعترف بانني سلمت القلعة عن رضى لأعجل احتلال الفرنسيين للمدينة ! »

ولئن نحن فهمنا مع ذلك ان جيوارز كان بريئاً ، فاننا مدركون لماذا يشكل الاعتراف الذي انتزع منه برهاناً على ان الحقيقة قد ماتت .

* * *

صدر حديثاً

سارتر والوجودية

دراسة ضافية عن المذهب الوجودي في آثار سارتر الفلسفية والادبية

بقلم

ر. م. البيريس

نقلها عن الفرنسية

الدكتور سهيل ادريس

كتاب هام لا بد للمثقف من قراءته

يطلب من دار العلم للملايين

لا فائدة من تحليل مسرحية روبلس باطول من هـذا . فهي لا تقصد الى تقديم حلّ ، وانما طرح قضية. وانا لا اطلب منها شيئاً آخر . انها كافية لأن تظهر ان حقيقةً ما تصبح دراماتية حالما تتجسد . ومن اجل هذا لا تؤثر قضية بلاطس في أحد . لقد سأل بلاطس المسيح ما هي الحقيقة وهو يعلم ان ليس من جواب على هذا السؤال . والواقع ان المسيح لدقة حسه ، قد فهمه ، ولكن وجد من العبث الاجابة . ولو سأله بلاطس « هل انت الحقيقة ؟ اية حقيقة تحمل؟ » لكان الموقف مختلفاً ، ولما ظل السؤال من غير جواب .

ولذلك فـان الامر الوحيد الذي اود ان احفظه من مسرحية روبلس هو ان جيوارز لم يعد يجرؤ عـلى التمسك بحقيقته ، او ما يعرف انه حقيقته ، لأنها لا حاجة بها بعد ، ولأنها لم تعد تُصدق ، ولأنها تبدو مؤذية ضارة . ولا يهمني ان اعرف الآن اذا كان يحسن بالانسان ان يعترف بجرم لم يرتكبه ، فهذا ما سيكشف عنه تحليلنا ، وانما الذي يعنيني انه كان بوسع روبلس ان يحفر أعمق مما حفر : إن الحقيقة من البعد عن التجرد ، وقلة الانفصال عن الناس ، بحيث انها تصبح رخصة هزيلة ، اذا كفّ الناس عن التمسك بهـا ، فتفقد واقعيتها ، وتصبح شبحية ، وينتهي بها الامر الى ان تنفصل عن جذورها .

لقد وددت لو ان روبلس ابرز لنـا بطله غير واثق من حقيقته ، غير مدرك بعدُ إن كان هو بريئاً حقاً ام خائناً ، كنت اودّ لو ابرزه لنا متخبطاً كالغريق يتعارك مع قارب الانقاذ الذي قد تركه لأنه هو نفسه كفّ عن التعلق به .

واذاً ، فنحن حائرون قلقون : اذا كانت الحقيقة على هذا الجانب الكبير من الضعف حين تكون مستندة الى مخاوفنـا وانعدام ضماناتنا ، وإذا لم تكن مستقلة عنا ، فاين تراه يكون تفوقها ؟ اذا كانت تترنح على حافة غيبتنا ، فاين يكمن واقعها ؟

إن كلاً منا الآن يحاول ان يبحث عن بعض الحقـائق الصلبة التي تظلّ مستقلة عنا استقلالاً كاملاً ، حقائق في ذاتها ، تستغني عن الناس . نفكر بحقيقة رياضية من مثل : إن مجموع زوايا مثلث يساوي زاويتين قائمتين ، او بسكولوجية : صدق الكائن العزيز علينا صدقاً لا ريب فيه ، او بحقيقة تاريخيـة : مرّ نابوليون بالاهرام ، ولدت في اليوم كذا من السنة كذا.. او بحقيقة لاهوتية : وجود الله . هذه حقيقة تبدو لنا مضمونة وهي تتجاوز غيبتنا ، وهي صحيحة لمعظم الناس لأنها قائمـة بذاتها تقاوم كل تغير . انها حقائق – صخور بالنسبة الى الحقائق - الغبار التي ذكرتها من قبل . فلنتحدث عن كل من هذه الحقائق، ولننظر ما الذي تحمله لنا. ولكني اخشى مسبقاً ان اجد في ذلك مزيداً من الاضطراب والعثار ، لا مزيـداً من الطمأنينة واليقين .

الحقيقة الاكراه

لنبدأ اولاً بالحقيقة الرياضية التي تبدو اوثق الحقائق . فان تساوي مثلثين في بعض الظروف هو حقيقي اردنا ذلك ام لم نرد . وسواء اعتبرت هذين المثلثين ام لا ، فان علاقة تساويها متعلقة بها وليست متوقفة على حضوري . هذه هي الحجـة الاولى . والحجة الثانية ان هذا الامر من اليقين بحيث ان علاقة المثلثين تفرض نفسها بالطريقة نفسها على كل رياضي ، انها توحد بين العقول . والحجة الثالثة ان الحقيقة الرياضية تفرض توحيد العقول هذا عبر الزمان والمكان : إن هندستنا هي هندسة اقليدس . فهل نتصوّر عقلاً يأتي يومـاً فيخطيء

سلسلة علم نفسك

سلسلة جديدة للثقافة العامة

نقلها الى العربية الاستاذ منير البعلبكي

صدر منها			ق. ل
١ .	كيف تكسب السعادة	لبرتراند راسل	١٥٠
٢ .	قادة الفكر الحديث (الطبعة الثانية) (كارل ماركس-برناردشو- ويلز)	للاستاذ كوتس	١٥٠
٣ .	علم النفس الحديث	للاستاذ سارجنت	١٥٠
٤ .	كيف تفكر	للدكتور جبسون	١٥٠
٥ .	ألفباء المرض والشفاء	للدكتور كوبلاند	١٥٠
٦ .	الحضارة الاوروبية في القرون الوسطى وعصر النهضة	للاستاذ شيفيل	١٥٠
٧ .	أعمدة الاستعمار الاميركي (الطبعة الثانية)	للاستاذ فيكتور بيرلو	١٥٠
٨ .	مصرع الديمقراطية في العالم الجديد	للاستاذ البرت كان	١٥٠
٩ .	فلسفة من الصين	للفيلسوف لين يوتانغ	١٥٠
١٠ .	قصص انسانية عالمية	تشيخوف، تولستوي الخ	١٥٠
١١ .	إدفع دولاراً تقتل عربياً (الطبعة الثانية)	للاستاذ غريزوولد	١٥٠

دار العلم للملايين

نظرية فيثاغورس ؟ إن ذلك كله بديهي جداً وصلب جداً حتى ينتج عنه ان الحقيقة الرياضية خالدة سرمدية .

ولا حاجة الى القول إن الرياضيات لم تعرف اناساً كانوا مستعدين للتضحية بحياتهم من اجل نظرية هندسية ، ولا يعرف التاريخ من استشهد في سبيل الرياضيات ؛ ذلك لان الحقيقة الرياضية « غير شخصية »

إنها تقوم في الناس بدون الناس وتستغني عن إقرارهم ، لأن في اعماقها جوهرة يسمونها « البداهة الواضحة » . اعني بداهة حين يراها العقل يجد نفسه مبهوراً حتى لا يبقى له الا مخرج واحد : الموافقة . إن البداهة الرياضية توثق الناس ، ومن أجل هذا يجمعون عليها ؛ وليست حريتنا الانسانية ، التي هي اثمن كنز لنا ، مدعوة الى تقديم اي معونة في هذا المضمار . إن الحقيقة الرياضية تستغني عن الانسان ، ومن اجل هذا لا يبدو الانسان مستعداً لان يهبها حياته .

الحقيقة الدعوة

الحقيقة إذن ايصال واتصال ، والانسان لا يتعلق بها الا اذا طلبت اليه الموافقة . ولكن اذا لم تكن الحقيقة تستغني عنا ، فهي اكثر من ذلك ، بحاجة الينا ايجابياً . انها لا تنتظر حضورنا فحسب ، بل مشاركتنا الفعّالة . هنا يأتي المجال للتحدث عن الحقيقة النفسية او الحقيقة التاريخية ، وبوسعنا ان ندمج الحقيقتين في تحليل واحد . فالحقيقة التاريخية معقدة ، وان فيها هامشاً للتلاعب يترك المجال لتأكيدات متناقضة ، ولولا اختيار المؤرخ الناشط ، لظلت الحقيقة معلقة ، مثقلة بفرضياتها مرتبكة بامكانياتها . ان الماضي التاريخي لا يفرض نفسه علينا ، وانما يعرض نفسه علينا مناديا بمشاركتنا . ان كلاً منا يستطيع ان يصرح بثقة انه ولد في اليوم كذا من السنة كذا . ولكن من اين يأتي هذا اليقين فعلاً ؟ انه لا يعتمد على حقيقة رياضية ، انه حقيقة غبار ، لا حقيقة صخرة . فهي لا تفرض نفسها علينا بالعنف ، وانما يبدو انها تخرج منا .

الواقع انه ينبغي ان نشير هنا الى عنصر « الايمان » الذي يحيي موافقتنا . ان هذا اليقين التاريخي يقوم على نسغ نفسي شديد التحرك . فنحن نثق بذوينا الذين سجلوا يوم مولدنا ، ولذلك يقوم تأكيدهم مقام شهادتنا ، وبذلك نقدم لهم رصيداً من الثقة يلبس تأكيدهم لباس الواقع الذي لا شك فيه . وعلى هذا فان علاقاتنا باهلنا ليست مجرد علاقة بنوة وابوة جسدية ، وانما هي علاقة ميتافيزيقية اعمق من كل نتاج عضوي ..

اننا نستطيع دائماً ان نشك بكائن ما اذا لم نعتزم ان نستخرج من انفسنا طاقة اضافية ، هبة مجانية ، موافقة تغطي هاوية سره الخفي . ان كل حقيقة تدعونا الى البحث وتثير عبقريتنا الخلاقة ، ونحن نفهم بعد ذلك لماذا يوافق المرء على التضحية بحياته حين يتهدد خطر ما هذه الحقيقة التي ولّدتها فورة من فورات الحياة . ان الانسان انسان حين يخلق ، ومن اجل هذا يجد نفسه اذ يجعل انسانيته خلاقة . انه يعرف فيها اذ ذاك شخصه واكثر من شخصه : القيمة التي حملته على تجاوز نفسه قياماً بخلق جديد .

عند هذا الحد ، يمكن تعريف الحقيقة بانها تواصل يدعونا الى مشاركة خلاقة للحقيقة ولنا في وقت واحد . ان كل حقيقة تشرى بتجاوز لحدودنا ولمستوى شخصيتنا . ان الحقيقة هي استغاثة واستجابة .

الحقيقة الموافقة

عرفنا مما سبق موقف الفلسفة الحديثة : « الحقيقة مسألة تتعلق بالانسان » كما يقول « جانسون » تلميذ سارتر ، ذلك ان الوجودية تعلق كل حقيقة على وجودنا ولكننا نستطيع ان نتخيل المنحدر الذي تقودنا اليه الوجودية اذا انسقنا معها . فاذا افرز كل وجود حقيقته الخاصة على هذا الشكل ، سدت جميع طرق التواصل ما دام كل انسان مسجوناً في وحدة لا امل

صدر حديثاً

الاشتراكية بين خصومها وانصارها

للاستاذ احمد المصري

وهو ينطوي على عدد من الدراسات الرصينة لانصار الاشتراكية وخصومها من عرب وفرنجة.

دار العلم للملايين

منها . ان عالم « الذاتية » الذي يؤمن به كير كيغارد يأسر كل امرىء في سره الخاص . ونحن نرى جاسبرز ، وقد يئس من كل معرفة موضوعية ، يستبدل بها هوى اللامعرفة ، « هوى الليل » حيث يغدو كل رقم طلسماً مواجهاً للايمان الفلسفي . وكان كير كغارد ، نبي الوحدة ، قد قال من قبل: اللايقين الموضوعي الذي تتبناه الذاتية العنيفة ، تلك هي الحقيقة ، وهكذا تحل الكثافة محل اليقين ، وحدة الوجود محل الموضوعية .

وانا لا اظن اننا ينبغي ان ننزلق في هذا المنحدر نحو ذاتية شديدة الاحكام ، وهذا موقف يجب ان يتخذه كل من شاء ان يصل الى الفلسفة القديمة والفلسفة الحديثة . فقد رأينا ان الحقيقة الرياضية لا تمت الى الحقيقة بصلة لانها لا تستدعي وجودنا، في حين ان المعطيات التاريخية والنفسية والسياسية .. هي منبع حقائق من لحم ودم ، حقائق حياتية تستطيع ان تعرضنا الى التضحية بجسمنا وبحياتنا . واذن، فان الفرق بين هاتين الطائفتين من الحقائق يكشف عالماً من الاشياء والاحداث والوجدانات : ها نحن مدفوعون الى الوحدة. ومن هذا العالم تخرج الاستغاثة التي تستجيب لها مشاركتنا الخلاقة . ان هذه الموضوعية هي التي تتحاور مع ذاتيتنا .

وبالتأكيد فان الحقيقة على هذا المفهوم ليست بعد شيئاً ناجزاً او صيغة مطمئنة. بل انها لتصبح مقلقة كأنها سؤال غامض، ولكن ها نحن اولاء متحررون من جدران عالم الذاتية . ان العالم حضور ينادي حضورنا ، وان الحقيقة ليست مصنوعة اصلاً ، بل هي تصنع كل لحظة. والمذهب الوجودي على حق من هذه الزاوية المعتدلة ، والواقع انه هنا يتبع مفهوماً قديماً: ان من يكشف الحقيقة انما هو الرجل. وان كل كشف ينبغي ان يبرز على طرق الحرية .

الحقيقة الحضور

اذا كان الأمر كما قلنا ، فان الحقيقة قد ماتت حقاً : ولكنها الحقيقة الكتلة ، الحقيقة الصخر ، الحقيقة الاكراه . وإنه لا بد من موتها لتنبعث الحقيقة الغبار في انتظار نَفَسنا الخلاق ، الحقيقة الدعوة ، الحقيقة الحيّة . وهكذا تكون الحقيقة اقتراحاً معروضاً على حريتنا ، وإن لها حظوظها فور تيقظ هذه الحرية ، وهي انما تموت حين ينصرف عنها الانسان. إنها معروضة في كل لحظة لخطر حريتنا . على انها في الوقت نفسه ليست شيئاً جاهزاً ناجزا ، وليس بوسع أحد أن يدعي انه يملك صيغتها ، إنها تواصل ، وهي لا تمتلك وانما تحل فيمن يستمع اليها . إن المرء « يدخل » الحقيقة كما يدخل صميمية صديق . إن الحقيقة مسارة تَعِدُ بها الخليقة باكملها كلّ من يقترب بخطى مرتجفة يقظة .

فاين هم اذن المرشحون لحقيقة تطمئن؟ لا مجال بعدُ للراحة وانما المجال للحميا والحماسة . إن الحقيقة نموّ مطرّد مع نمو الزمن والنمو البشري . انها تتسع ابداً ، في العلم والفلسفة والدين . ليست متشابهة ، وانما هي نفسها ابداً وجديدة . إن من ينغلق في التقاليد يشلّ الحقيقة ، وإن من يريد ان يخلق حقائق جديدة مئة بالمئة ، فانما يصنع مسبقاً حقائق ميتة ، ذلك ان الحقيقة ، ليست هي في الماضي ولا في المستقبل ، بل هي امينة للزمن ، وهي تنفجر في الحاضر .

انكون إذن مسافرين يتلمسون طريقهم في الليل ، كلٌّ ضائع في منعطفات وحدته ، من غير ما امل في اللقاء ؟ الأمر على نقيض ذلك ، فحسب كل منا ان يتقدم الى نهاية ذاتيته ليجد روح كل حقيقة ، وكلما اردنا ان نقسر انساناً على الحقيقة ، فصلناه ، اما اذا رآنا متنبّهين فقط الى حقيقتنا ، فاننا نصبح له دعوة للحقيقة والحوار .

من أجل هذا ، يصعب على المرء ان يكون على حق او على خطأ . وبحسب كل انسان ان يستمسك بحقيقته وان يتبعها كما يتبع نجمة في الليل ، وسرعان ما يغمر هذا الليلَ الحجاجُ وانفاسُ الاشياء ويتجمع العالم كله في فجر واحد .

* * *

ولننه هذا البحث بخاتمة عملية تتعلق ببطل عمانوئيل روبلس وبالحقيقة السياسية . فمن الواضح انه ليس ثمة لحظة واحدة يمكن قبول خطأ فيها ؛ ذلك اننا نقطع في هذه اللحظة بالذات حظوظ الحقيقة . إن الشهادة الزائفة، حتى ولو كانت بطولية ، هي كرمٌ وهميّ ، انها تفسد الزمن . وإن تزييفاً للحقيقة او التواء بها ، في ميدان السياسة او في سواه ، لا بد ان يجر الى الوان اخرى من التزييف والالتواء . ولا بد ان يدفع ثمن المصلحة المعجلة كارثة مؤجلة *

رينه حبشي

---

* موجز محاضرة القيت بالفرنسية في الندوة اللبنانية ببيروت . «تعريب الآداب »